﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: 65]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

الأحكام يوم القيامة بالبيّنة والدلائل الدّامغة

لمّا كان كأنَّه قيل: هل يحكم الله تعالى في الكافرين يوم القيامةِ بعلمه، أو يجري الأمر على قاعدة الدنيا في العمل بالبيِّنةِ؟ بيَّنَ أنَّه على أظهر من قواعد الدنيا، فقال مهوِّلًا لليوم: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لما سمعوا قَوْلَهُ تعالَى﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أرادوا أنْ يُنْكِروا كُفْرَهُمْ، فَيَخْتِمُ اللهُ عَلَى أَفْواهِهِمْ فَلا يَقْدِرونَ عَلَى الإنْكارِ، ويُنْطِقُ اللهُ غَيْرَ لِسانِهِمْ مِنَ الجَوارِحِ فَيَعْتَرِفونَ بِذُنوبِهِم، فقال تعالى﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الآية، أو يقال: لَمّا قالَ اللهُ تَعالَى لَهُمْ ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوابٌ، فَسَكَتوا وخَرِسوا وتَكَلَّمَتْ أَعْضاؤُهُمْ غَيْرَ اللِّسانِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَخۡتِمُ﴾: (ختم) أصلٌ يدُلُّ على بُلوغُ آخِرِ الشَّيْءِ، يُقالُ: ختمتُ العَمَلَ، وخَتَم القارئُ السّورةَ، فأمّا الخَتْمُ، وهو الطَّبْعُ على الشَّيءِ، فذلكَ من الباب أيضًا؛ لأنَّ الطَّبْعَ على الشَّيءِ لا يكونُ إلّا بعد بُلوغِ آخره في الأحرازِ، والخاتَمُ مُشتقٌّ منه؛ لأنَّ به يُختمُ، والخَتْم عَلَى القَلْب: أن لا يَفهَم شيئًا ولا يَخرُج منه شيءٌ كأنَّه طَبْعٌ، وفي التَّنزيلِ العزيز: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: 7]، هو كقوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: 93]، فلا تَعقِلُ ولا تعي شيئًا؛ ويأتي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 156.

(2) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 374، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302.

الختم بمعنى التَّغطيةِ على الشَّيءِ والاستيثاقُ والاستيثاقِ من أنْ لا يدخله شَيْءٌ، ومعنى الختم في الآية: الطَّبعُ والمَنْعُ، أي: نَطبَعُ، ونمنَعُهم مِن الكلامِ[1].

2) ﴿وَتَشْهَدُ﴾: (شهد) أَصْلٌ يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلام[2]، لا يَخرجُ شيءٌ مِنْ فُروعِهِ عَنِ الَّذي ذَكرناهُ، من ذلكَ الشَّهادةُ، يجمعُ الأُصولَ الَّتي ذَكرناها من الحُضورِ، والعِلْمِ، والإعلامِ، يُقالُ: شَهِدَ الشَيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، والشّاهِدُ والشَّهيدُ: الحاضِر، وهو المُؤَيِّدُ والمُصدِّقُ لدَعوى مُدَّعٍ، والمَشهَدُ: مَحْضَرُ النّاسِ[3]، والمقصودُ بالشَّهادة في الآية: الإخبارُ بالأمر الواقع كما وقع، أي: تَنطِقُ أرجُلُهم، فتَشهَدُ عليهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ والآثامِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى: اليومَ نَطبَعُ على أفواهِهم، ونمنَعُهم مِنَ الكَلامِ، وتُكَلِّمُنا أيديهم بما عَمِلَته، وتَنطِقُ أرجُلُهم، فتَشهَدُ عليهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ والآثامِ[4].

ما كان عَونًا على المعاصي يصير شاهِدًا يوم القيامة

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّه يَخْتِم على أفواه المكذَّبين يوم القيامة فلا يتكلَّمون، وإلى بيان قدرة اللّه؛ إذ من خلاف العادة أن تتكلم الأيدي والأرجل، وإلى أنَّ الإنسان يمكن أن يشهد بعضُه على بعض؛ لأن الرجل الواحد تشهد عليه أعضاؤه بما عمل، وإلى أنَّ العبرة في العمل بما كان فيه من كسب، لا مجرد العمل؛ لأن مجرد

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ختم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 472، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 585، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 698.

العمل قد لا يكون كسبًا كما لو صدر من جاهل، أو صدر من ساهٍ، أو نائم، أو ما أشبه ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

من براعة بلاغة القرآن أن تأتي الآية تذييلًا لما قبلها وتمهيدًا لما بعدها

جاءت جملة ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، لتكون خاتمة لبيان أحوال المعاد، وكالتخلُّص إلى ذكر أحوال المكذِّبين من قوم رسول الله ﷺ، وتقريعهم وتوبيخهم، فالجملة بمنزلة التّذييل لما قبلها والتّمهيد لما بعدها[2]، وتَحْتَمِل أن تكون استئنافًا بيانيًّا، وبيانه أنَّه لمّا جعل سبب دخولِهم النّار وصَلْيِهم فيها هو كُفْرُهُم؛ كان كأنَّه قيل: هل يَجْحَدُ المجرمون بكفرِهم أم يُقِرّون به، وبما فعلوا من المعاصي يوم القيامة؟ فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

دلالة ظرفية ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

في ذكر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ تَنويهٌ بحُصولِ هذا الحالِ العجيبِ فيه، وهو انتقالُ النُّطقِ مِن مَوضعِه المعتادِ - وهو الذي يكون بالأفواه - إلى الأيدي والأرجُلِ، فإنَّ تهويلَ الوقت وتفخيمَه لعِظَمِ ما يقع فيه[3].

بلاغة الاستعارة في الختم:

الختم على الأفواه بمنعها من الكلام بأيِّ طريقةٍ كانت

في قوله تعالى ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ استعارة تبعيَّة، فالختم على الأفواه بمعنى المنع من الكلام بإحداث هيئةٍ تمنعهم من النّطق، أو أن يفعل بأفواههم ما لا يمكِنهم معه أن يتكلَّموا بألسنتهم[4]، وبيانُ الاستعارة أنَّه شبَّه مَنْعَهُم من الكلام بالختم، اعتبارًا بما يحصل

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة يس، ص: 233- 234.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 85، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 49.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.
(4) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 374، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 177.

من المنع بالختم على الكتب والأبواب، بجامع عدم تسرّب شيءٍ أو الزّيادة عليه؛ للإيذانِ بمنعهم من النّطق.

نكتة التّعبير بالختم على الأفواه:

جُعِل الخَتْمُ على الأفواه دون الألسنة في قوله ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ لأنَّ الختم يكون على الشّيء بتمامِه وبعد بلوغ آخره، ولمّا كان اللسان في الفم وهو منه، كان الختم على الأفواه منعًا للألسنة عن النّطق وكان أحكم في المنع، كما أنَّ التّعبير بـ﴿أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ينبئ عن مبالغة واستحكام في التّعبير وبيان القصد، ومنه قولهم: (تَكلَّمَ بملْءِ فيهِ) حين يريدون المبالغة في الكلام، فلمّا قال ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أفادَ المبالغة في منعهم من الكلام[1]، ومن لطائف التّعبير بالختم أنَّه لم يرد في القرآن إلّا وهو ملازم للكفّار، ففي الدنيا ختم على قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7] وفي الآخرة يُختم على أفواههم، كما في قوله﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، فلمّا ختم على قلوبِهم وأفواهِهم فلم يَبْقَ إلا قولهم بسائر أعضائهم[2].

الختم ملازم للكفّار، ففي الآخرة يُختم على أفواههم

فائدة الإسناد إلى نون العظمة:

أسند الفعل ﴿نَخْتِمُ﴾ إلى نون العظمة؛ للإيذان بِعِظَم أمرِ الختم ومَنْعِ المجرمين من النّطق، وأنَّه لا يقدر عليه إلّا اللّه الواحد الأحد.

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾:

عبّر بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾ للإشعار بأنَّ الختم على أفواهِهم متمكّن منهم، فيسكتون ولا يستطيعون النّطق.

سرّ إسناد الختم إلى الله تعالى:

أسنَد اللّه تعالى الختم إليه فقال: ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وأسند الكلام

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل1/ 94.

(2) البسيلي، نكت وتنبيهات: 3/ 460، والنيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 453، واسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 134، 7/ 424 - 425.

كـلام الأيـدي وشهادة الأرجل يـوم الـقيـامـة باختيارِها لتظهر الـحـجَّـة مـن أنفسِهم

والشهادة إلى الأيدي والأرجل، فقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾، وسرُّه هو أنَّه لو قال: (ونُنطِقُ أيديَهم ونُشهِدُ أرجلَهم) لكان فيه احتمال أن يكون نطق الأيدي وشهادة الأرجل جبرًا وقهرًا، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فلمّا أسند الكلام إلى الأيدي والشّهادة إلى الأرجل في قوله ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ دلَّ على أنَّ الأمر باختيارِها بعد ما يُقْدِرُها اللّهُ تَعالَى عَلَى الكَلامِ ليَكونَ أَدَلَّ عَلَى صُدورِ الذَّنْبِ مِنْهُمْ[1]، وإن قيل فما جواب قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: 21]، ففيه تصريح بالنّطق من غير اختيار؟ وجوابه أنَّه إنّمّا أخبر عن الجلود وهي لا تتكلَّم لأنَّ الكلام من الأفواه، فكانت شهادة الجلود بإنطاق اللّه إيّاها لأنَّها غير مهيّئة للنّطق، ففيه إظهار لقدرة اللّه المطلقة، أو يقال: شهادة جلودِهم عليهم وإن لم تكن بالاختيار لكنّها مطابقة للواقع، وله نظير في الدّنيا حيثُ إذا عوتب شخص على إقراره يقول: ما أقررت عن اختيار، بل لدواعٍ وأسبابٍ، مع أنَّه مؤاخَذٌ بإقرارِه لكونِه مطابقًا لنفسِ الأمر[2].

بلاغة التّعريض بالكفار:

في قولِه تعالى ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ تعريضٌ بالكافرين بأنَّهم لو خُلّوا بينهم وبين الكلام بألسنتِهم؛ لاجترؤوا على الكذب يوم القيامةِ كذلك، كما كان ديدنهم في الدنيا[3].

معنى الواو في المعطوفات:

الواو في قوله ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ تفيد التشريك في الحكم بمعنى أنَّ هذه الأمور تقع كلها في ذلك اليوم وفي وقت واحدٍ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 177 - 178.
(3) البقاعي نظم الدرر: 16/ 156.

مناسبة ترتيب المعطوفات:

نسب الكلام للأيدي لأنّها الفاعلة للمعاصي غالبا والشّهادة للأرجل لأنّها آخر الأدلّة

في قوله تعالى ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ بدأ بالختم على الأفواه؛ لأنَّ في الختم عليها منعًا للكافر من أن يلغطَ بالكلامِ الكذب حال تكلُّم الأيدي وشهادة الأرجل عليه لئلا يُسمَعَ قولها، وكما هو دأب أهل العناد عند الخصام[1]، ثم ذكر تكلّم الأيدي لأنَّها الفاعلة للمعاصي والآثام غالبًا، ثمَّ ذكر شهادة الأرجل لأنَّ الشهادة تكون آخر الادلَّة، كما أنَّه بدأ بأعلى البدن وانتهى بأسفله.

بديع الجمع بين الختم والتكلُّم:

في قوله ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ جمع بين الختم على الأفواه وتكلُّم الأيدي على سبيل الطّباق، فإنَّ الختم بمعنى المنع من التكلُّم[2].

نكتة التّعبير بصيغة المضارع:

عبِّر بصيغة المضارع في الأفعال ﴿نَخْتِمُ﴾ و﴿وَتُكَلِّمُنَآ﴾ و﴿وَتَشْهَدُ﴾ لتصوير الحالة، ليكون أبلغ في التّهويل لما يكون عليه حال الكافرين والمجرمين.

دلالة الكلام والشّهادة بين الحقيقة والمجاز:

الأيدي تتكلم قولًا مفيدًا مسموعًا يوم القيامة ومثلها الأرجل

لمّا كان الكلام هو اللفظ المفيد المعبِّر عن المقصود، دلَّ على أنَّ المراد من تكلّم الأيدي في قوله ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ هو الكلام الحقيقي، فتعبّر الأيدي عن المعاني المقصودة بطريق النّطق بوضوح تامٍّ، ولمّا كانت الشّهادة تكون باللفظ المفصِح عن المراد دلَّ على أنَّ الشهادة في قوله ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ تكون بإنطاق الله إيّاها - فيكون المرادُ في اللفظين النُّطْقَ بالمقال، ويَحْتَمِل أن يكون التّعبير في اللفظين بطريق الاستعارة التّبعيَّة، بتشبيه ما يظهر من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 157.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 41.

آثار المعاصي عليها ودلالتِها على أفعالِها بالتكلّم والشهادة بجامع الظّهور – فيكون المرادُ النّطقَ بدلالة الحال، فجُعِلَتِ الدلالةُ الحالية بمنزلة المقالية مجازًا[1]، كما يَحْتَمِل أن يكون بطريق الكناية عن ظهور الأمر ووضوحِه، بحيث لا يُسمعَ معه إنكار، وليس ثَم كلامٌ ولا شهادةٌ بالنّطق واللفظ، كما يقول القائل: الحيطان تبكي على صاحب الدار، كنايةً عن ظهور الحزن[2].

سبب إيثار جعل الكلام للأيدي والشّهادة للأرجل:

قولُ الفاعلِ على نفْسِه إقرارٌ لا شَهادةٌ، وقولُ الحاضرِ على غيرِه شَهادةٌ

في قوله تعالى﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ جعل الكلامَ للأيدي والشهادة للأرجل، دون العكس؛ لأنَّ الأيدي هي العاملة والفاعلة غالبًا، فالأفعال تُسنَدُ إلى الأيدي، وما يسند للأيدي يسند للذّات على طريق المجاز المرسل بذكر الجزء وإرادة الكلِّ؛ كما قال تعالى﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾ [يس: 35] أَيْ ما عَملوهُ، وقالَ ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: 195] أَيْ ولا تُلْقوا بِأَنْفُسِكُمْ إلى التّهلكةِ، والفاعل مُقِرٌّ على نفسِه بالكلام، فناسبه أن يكون الكلام للأيدي؛ ليكون من قَبيل إقرار الفاعل، والغالب في الرِّجْل أن تكون حاضرةً، كما أنَّ الشّاهدَ عَلَى العامِلِ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ غَيْرَهُ، فَجَعَلَ الأَرْجُلَ مِنْ جُمْلَةِ الشُّهودِ؛ لِبُعْدِ إضافَةِ الأَفْعالِ إلَيْها، ولأنَّها لمّا كانت حاضرةً كان الأنسبُ أن تكون الشّهادة لها، فقولُ الفاعلِ على نفْسِه إقرارٌ لا شَهادةٌ، وقولُ الحاضرِ على غيرِه شَهادةٌ، فَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَمّا صَدَرَ مِنَ الأَيْدي بِالقَوْلِ، وعَمّا صَدَرَ مِنَ الأَرْجُلِ بِالشَّهادَةِ، فناسب كلٌّ لفظ ما أسند إليه[3].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 272، والشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 249، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 176.

(2) البسيلي، نكت وتنبيهات: 3/ 460.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 49، والأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 474.

وذهب البِقاعيُّ وغيره إلى أنَّ الكلام على الاحتباك وبيانه: أنَّه لمّا أَثبت الكلامَ للأيدي أولًا لأنَّها كانت مباشرة، دلَّ على حذفه من حيِّز الأرجل ثانيًا، ولمّا أثبت الشهادة للأرجل ثانيًا لأنَّها كانت حاضرةً، دلَّ على حذفها من حيِّز الأيدي أولًا، بقرينةِ أنَّ قولَ المباشر إقرارٌ وقولَ الحاضر شهادةٌ، وتقدير الكلام: وتُكَلِّمُنا أَيْديهِمْ فَتَشْهَدُ، وتشهدُ أَرْجُلُهُمْ فَتتكلَّم[1].

دلالة العموم في تكلّم الأيدي وشهادة الأرجل:

كُـلّ عُـضْـو من أعضاء الإنسان يَـنْـطِـق يـوم القيامة بِما صَدَرَ مِنْه ومن صاحبه

لمّا جاء قوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ معلَّقًا بلفظ العموم (ما) في قوله ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؛ أفاد أنَّ التكلُّم والشهادة على العموم، بمعنى أنَّ كُلّ عُضْو يَنْطِق بِما صَدَرَ مِنْ أفاعيله وأفاعيل صاحبه، لا أنَّ كلَّ واحدٍ من الأعضاء يخبر بجنايته المعهودة فقط، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ كلّ عضو يُخبِر بجنايتِه فقط، فالأيدي تتكلَّم عن جنايتها والأرجل تشهد بما كسبت، والقول بعموم التكلُّم والشهادة أبلغ في التّفظيع[2].

فائدة نطق الأعضاء:

فائدة نطق الأعضاء في قوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ هو ليعلم أنَّ ما كان عونًا على المعاصي صار شاهدًا عليه، فلا ينبغي لأحد أنْ يصحب أحدًا إلا لله تعالى؛ لئلّا يُفتضح يوم القيامةِ بسبب صحبته[3].

سبب إيثار أن يكون الكلام والشّهادة من المجرمين أنفسِهم:

الإقـرار بالإجرام مـن أنـفـس الكافرين أدعى لاسـتـحـقـاق العذاب

في قوله تعالى ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾، قد يقال لِمَ كان الإقرار بالذّنوب والشهادة عليها من المجرمين أنفسِهم وليس من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 157، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 453، وإسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 134، 7/ 424 - 425، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 42.
(3) العليمي، فتح الرحمن في تفسير القرآن: 5/ 494.

النّاس الذين رأوهم وشهدوا عليهم في الدّنيا؟ وجوابه: أنَّه لمّا كان من يشهد عليهم هم المقرّبين من المؤمنين وهؤلاء أعداء للمجرمين، كانت شهادة العدوّ على العدوّ غير مقبولة، وإن كان من يشهد عليهم الكفّارَ والمجرمين فهؤلاء شهادتُهم غير مقبولة لفسقِهم وكفرِهم[1]؟ كما أنَّ في كلام الأيدي وشهادة الأرجل تسجيلًا عليهم من أنفسِهم، فيكون أدعى لاستحقاقِهم عذاب جهنَّم.

دلالة إقرار الجوارح وشهادتِها:

إقرار الجوارح أبلغ من إقرار اللسان

في قولِه تعالى﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ إيذانٌ بأنَّ أعضاءهم التي كانت عونًا لهم على المعاصي صارت شاهدة عليهم، وذلك أنَّ إقرار الجوارح أبلغ من إقرار اللسان[2].

بلاغة الالتفات من الخطاب:

ذكر أحوال الكافرين القبيحة يقتضي الإعراض عنهم وعدم مخاطبتِهم

الضّمائر في قوله ﴿أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ و﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ و﴿أَرۡجُلُهُم﴾ تعود إلى الذين خوطبوا في قوله ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ وقوله ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، فعدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة على طريقة الالتفات؛ للإيذانِ بأنَّ ذكر أحوالِهم القبيحة اقتضى أن يُعرضَ عنهم ولا يُخاطَبوا ويحكيَ أحوالَهم الفظيعة لغيرِهم، ففي الالتفات إلى الغيبة إيذانٌ بالإعراض لتناهي الغضب، كما أنَّ في الالتفات إيماءً إلى أنَّ ذلك مِن مُقتضياتِ الختْمِ؛ فإنَّما الخطاب لتلقّي الجواب، وقد انقطع جوابُهم بالكليَّة بسبب الختم على أفواهِهم، فلا يناسب السّياق سوى الالتفات[3].

لازم فائدة الخبر:

فائدةُ الخبر هي الإعلامُ بأنَّه تعالى يختم على أفواههم وتتكلم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302.
(2) الخازن، لباب التأويل: 4/ 11.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 156، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 7/ 178، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.

أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون في الدنيا، ولازِمُ الخبر في مواجهتِهم بهذا الإعلامِ هو تأْييسُهم من الإنكار، أي لا يَنفَعُهم إنكارُ ما اطَّلَعوا عليه مِن صَحائفِ أعمالِهم[1].

توجيه المتشابه اللفظي:

تفاوت أحوال الكافرين يوم القيامةِ من نطقهم في وقتٍ ومكانٍ وعدمه

قد يقال: ما وجه الجمع بين قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وبيْن قولِه ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: 24]، وجوابه أن لاتعارض بين الآيتين؛ لأنَّ آيةَ (يس) في أحوالِ المشركينَ، وآيةَ سورةِ (النّورِ) في أحوالِ المنافقين[2]، أو يقال: إنَّهم يجحدون ويُخاصمون يوم القيامة فيشهد عليهم جيرانُهم وأهاليهم وعشائرُهم فيحلفون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: 23] فحينئذٍ يُختم على أفواهِهم وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فذلك قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[3].

وجاء عن ابن عبّاسٍ ﷺ: أنَّه سُئِلَ عمّا ظاهره التّعارض فيما أخبر الله عن المشركين يوم القيامة في قوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: 85]، ونطقهم في قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: 23]، والختم على أفواههم في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؟ فقال: (إنَّه ذو ألوانٍ؛ مَرَّةً يَنْطِقونَ، ومَرَّةً يُخْتَمُ عليهم)، فيوم القيامةِ يومٌ طويلٌ ذو مواطِنَ مُختلفةٍ، فيَنطِقون في وقتٍ ومكانٍ ويقرّون، ولا يَنطِقون في آخَرَ ويختم على أفواههم، أو يقال: المشركون يوم القيامة صنفان، معترفون ومنكرون، فأمّا المعترفون فلا خَتْمَ على أفواهِهم، وأمّا المنكرون فيُخْتَمُ على أفواههم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 3/ 583، والزمخشري، الكشاف: 4/ 24، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176.

وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم على كفرِهم وإجرامِهم، وهذا بحسب تفاوت كُفْرِهم وعُتوِّهم[1].

توجيه تعلّق الجارّ والمجرور في الآية:

يتعلَّق الجارُّ والمجرور في قولِه ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بالفعلين ﴿وَتُكَلِّمُنَآ﴾ و﴿وَتَشۡهَدُ﴾ على التّنازع، والتقدير: تكلّمنا أيديهم بما كانوا يكسبون، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، وسبب إيثار تعليق الفعلين بمتعلَّقٍ واحد هو الإشعار بأنَّ غرضَهم من عمل أيديهم وأرجلهم واحد هو كسب السّيئات.

الإشعار بأنَّ غرضَهم من عمل أيديهم وأرجلهم كسب السّيئات

دلالة العموم للاسم الموصول:

في قوله ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أفاد التّعبير بالاسم الموصول (ما) العموم، ليستغرق الشّرك وأنواع المعاصي.

براعةُ التّعبير بتركيب ﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

عبّر بصيغة الماضي في لفظ ﴿كَانُواْ﴾ المقترن بالفعل المضارع ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ للإفادة أنَّ كسبَهم الشرك والمعاصي في الدنيا كان مجبولًا فيهم، كما يشير التّركيب إلى تكرّر كسبِهم الشرك والمعاصي في الدّنيا ومداومتِهم عليه وتجدّده منهم حالًا فحالًا.

تكرُّر كسبِهم الشرك والمعاصي ومداومتهم عليه وتجدّده منهم

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

لمّا كان الكسب يقال لِما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظّ، كَكَسْبِ المال[2] كان التّعبير بلفظ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ للدّلالة على ما فعلوه من الشّرك والآثام والقبائح، ومنها تَكْذيبُهُمُ الرَّسولَ ﷺ وما أَلْحَقوا بِهِ من الأَذَى؛ ليكون الكلامُ على سبيل الاستعارة التّهكّميَّة، تبكيتًا لهم، وتحذيرًا من اتّباع طريقِهم، فقد كانوا يظنّون ما يفعلونه خيرًا لهم، لكنَّهم سيرونه يوم القيامةِ شرًّا لهم وضرًّا

التّهكّم بالكافرين من عادات القرآن

(1) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 248، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 177.
(2) الراغب، المفردات: (كسب).

عليهم، كما أنَّه لمّا كان الكسب يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره[1] أفاد شمول الكسبِ لما قدَّموه لأنفسِهم أو لغيرِهم من السيّئاتِ والآثام.

غرضُ حذف المفعول:

تعميمُ جميع ما يكسبون

لمّا كان قوله ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بتقدير (يكسبونه) أفاد الكلامُ حذف العائد إلى الاسم الموصول، ونُكتَتُه تعميمُ الفعل بمعنى جميع ما يكسبون، كما أنَّ في حذف المفعول رعايةً لِلفاصلة القرآنيَّة.

(1) الراغب، المفردات: (كسب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»